هويات قلقة

«أبناء الطائفة المندائية هم جزء من المكونات العراقية وهم يحرصون كل الحرص على مشاركة الجميع أفراحهم ومناسباتهم».

سامر نعيم
رئيس مجلس شؤون الصابئة المندائيين في ذي قار

«إن وعي العراقيين بصورة عامة والأقليات بصورة خاصة بالمخطط الإرهابي الذي حاول أن يضع صدعا ينفذ منه إلى اللحمة الوطنية أدى إلى فشل تلك المحاولات».

كامل أمين
وزير حقوق الإنسان في الحكومة العراقية

# الصابئة المندائيون أقدم من استوطن بلاد الرافدين والقرآن أول من ذكرهم

## ● المصطبغون بنور الحق والتوحيد والإيمان يتعمدون بمياه الأنهار

من الصعب الكتابة عن ديانة تبدو منغلقة على أصحابها، وغير تبشيرية، وفضلا عن ذلك، هناك تضارب آراء بين الخبراء والباحثين بشأن هذه الديانة، وهي ديانة الصابئة المندائية، فمنهم من يراها ديانة توحيدية قديمة جدا، وقريبة من الديانة الحنيفية عند العرب. بينما يرى آخرون أن الصابئة طائفة من المسيحية كونهم يشتركون مع المسيحيين في بعض الطقوس الدينية كالتعميد بالماء الجاري. في حين يرى بعض المؤرخين أن الصابئة فرقة من الديانة اليهودية.

**خديجة حيدري**

❑ يقول "مسعود فروزنده" أحد مؤلفي كتاب "إيران، أرض سلام الأديان الإلهية" إن الصابئين المندائيين هم أتباع النبي يحيى الذين هاجروا إلى نهر الفرات قبل 1950 عاما بسبب الاضطهاد الذي عانوا منه من قبل سكان "أورشليم". فكان أول مكان سكنوه هو "حرّان" المدينة التاريخية المشهورة. ثم انتقلوا بعدها على امتداد نهر الفرات، إلى أن استقروا في النهاية في بغداد والبصرة والعمارة في العراق، وفي بعض مدن محافظة خوزستان في إيران كالمحمرة والأهواز والحويزة وشوشتر.

◄ **عاش المندائيون في العصر العباسي، وظهرت أخبارهم في كتب التاريخ، وبرز منهم كُتاب وأدباء وعلماء وأطباء**

والصابئة المندائية طائفة قديمة جدا تعتبر يحيى عليه السلام نبيّا لها ويقدّس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها. ويعتبر الاتجاه نحو القطب الشمالي، والتعميد في المياه الجارية أهم معتقدات هذه الديانة.

وتعني كلمة الصابئي، الارتماس في الماء، الأمر الذي جعل الصابئة يفضلون السكن على ضفاف الأنهار فكانت مساكنهم بالقرب من الماء كالضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات. (ترجمان الأديان، أسعد السحمراني، دار النفائس، 2009).

وهناك من يرى أن لفظة الصابئة مأخوذة من كلمة "صَبَا" الآرامية وتعني الارتماس في الماء والمعمودية، وليس من كلمة صَبَأ العربية التي تعني خروج الشخص من دين آبائه إلى دين آخر. أما مفردة "المندائيين" فهي جمع المندائي ومأخوذة من كلمة "مندايي" باللغة الآرامية، وتعني العارف، كما أوضح ذلك الدكتور مراد كامل في كتابه تاريخ الأدب السرياني، وعلى هذا فالمندي هو معبد الصابئة. (الصابئة المندائيون، الليدي دراوور، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، الطبعة الثانية، بغداد، 1987).

والطهارة فرض على أصحاب هذه الديانة ذكورا وأناثا سواء وبلا تمييز، وتكون في الماء الحي غير المنقطع عن مجراه الطبيعي. أما التعميد فهو أبرز معالم ديانة الصابئة المندائيين ولا يكون إلاّ في الماء الجاري، ولا تتم طقوسه إلاّ بالارتماس في الماء سواءً أكان الوقت صيفا أم شتاء.

وقد أجاز لهم علماؤهم مؤخرا الاغتسال في الحمامات، وكذلك في العيون النابعة لتحقيق الطهارة. ويجب أن يتم التعميد على أيدي رجال الدين.

وللتعميد حالات متعددة، وهي على النحو الآتي، وفق ما جاء في كتاب "طقوس ديانة الصابئة المندائيين"، لخالد أحمد العيثاوي وأحمد حسين العيثاوي، عن موقع المجلات الأكاديمية العلمية العراقية:

1- الولادة: ويعمد المولود بعد 45 يوما ليصبح طاهرا من دنس الولادة ويتم ذلك بإدخال الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتجاه إلى جهة نجم القطب.

2- عماد الزواج: ويتم هذا التعميد يوم الأحد وبحضور كتابهم "ترميدة" أو "ك كنزا ربّا"، ويتم خلال ثلاث دفعات في الماء مع قراءة في كتاب "الفلستا"، وبلباس خاص، ثم يشرب العريسان من قنينة ملئت بماء أخذ من النهر.

3- عماد الجماعة: ويكون في كل عيد "بنجة" من كل سنة كبيسة لمدة خمسة أيام ويشمل أبناء الطائفة جميعا رجالا ونساء، كبارا وصغارا، وذلك بالارتماس في الماء الجاري ثلاث دفعات قبل تناول الطعام في كل يوم من أيام العيد، والمقصود منه التكفير عن الخطايا والذنوب المرتكبة خلال السنة. ويطلق على الصابئة في اللهجة العراقية "الصبّة". لغتهم هي اللغة الآرامية وخطهم هو خط بين الآرامي والمانوي. ويتكلم الصابئون اللغة المنداوية، غير أنها تكون متداولة أكثر بين علمائهم وكبارهم، فأكثرهم يتحدثون العربية.

### الصابئون في القرآن الكريم

يمتهن الصابئة المندائيون خاصة في إيران صياغة الذهب والفضة. وهم لا يرتدون في طقوسهم الدينية إلا القماش الأبيض الطبيعي.

وأول من ذكر الصابئة هو القرآن الكريم، إذ تشير ثلاث آيات قرآنية إلى الصابئة:

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (سورة البقرة آية 62)

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (سورة المائدة آية 69)

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركو بالله إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد" (سورة الحج آية 16)

### الطقوس الدينية

يؤمن الصابئة بالله الواحد واليوم الآخر، ولهم طقوسهم وشعائرهم الدينية الخاصة، ويحتل الماء مركزا أساسيا في طقوسهم وشعائرهم، فهم يعمّدون الطفل عندما يولد، كما يفعل المسيحيون، كما أنهم يدخلون الماء في طقوس الزواج والمأتم.

ويقومون بالتعميد وطلب الغفران لمواجهة الحياة مواجهة جديدة نقية خالصة لوجه الله، كما أنه دليل على اعتناق الدين الصابئي. ولدى الصابئة كتب كثيرة إلاّ أن كتابهم الرئيسي هو "كنزاربا" أي الكنز العظيم، ثم كتاب "ترميدة" وكتاب "اشكندا".

ومن الطقوس الأخرى في ديانة الصابئة هي: العماد، والصلاة والصيام والصدقة. والعماد المندائي يمارس بثلاثة أنواع:

- العام ومن مستلزماته الماء الجاري، وقد عوض في ما بعد بأحواض الماء التي تقام داخل المندى مع إكليل من الريحان أو الآس إشارة إلى الطيب. كما يشترط ارتداء الملابس الدينية، ودعاء هذا العماد هو: "رسمي لا يكون بالنار ولا بالزيت ولا بالمسح، رسمي بالماء العظيم، ماء الحي.

- النوع الثاني هو العماد الشخصي ويسمى "طماشه" وهذا العماد مجرد اغتسال عن النجاسات كالجنابة وغيرها.

- أما النوع الثالث من العماد يسمى "رشامة" وهذا هو الوضوء، ويمارس ثلاث مرات يوميا وتغسل خلاله الأعضاء الخارجية. وبعد أن ينتهي المندائي من الوضوء يقوم بالتوجه إلى القبلة وهي عند أديان الصابئة جهة الشمال.

◄ **كلمة الصابئة مشتقة من الجذر (صبا) الذي يعني باللغة المندائية غطس في الماء، وهذا من أهم شعائر المندائيين**

وصلاة المندائي عبارة عن قراءة وتبريكات الانحناء كلما وردت كلمة السجود في النص المقروء كقولهم: "قوموا أيها المؤمنون اسجدوا وسبّحوا لله العظيم".

أما أوقات تأدية الصلاة وأسلوبها ومستلزمات أدائها فتكون وفق ما هو مقرر في كتبهم المقدسة، فهي تؤدى ثلاث مرات في اليوم: قبيل الشروق وعند الزوال وقبيل الغروب. وتستحب أن تقام جماعة في أيام الأحد والأعياد، فيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وهي تستغرق ساعة وربع الساعة. يتوجه المصلي خلالها إلى المندي بلباسه الطاهر، صافي القدمين، يتلو سبع قراءات يمجّد فيها الربّ، مستمدا منه العون في تيسير اتصاله بعالم الأنوار، أما الركن الآخر لديانة الصابئة المندائيين فهو الصيام، وفيه يمتنعون عن أكل اللحوم المباحة لهم مدة يوم. وقد حرّم اليوم الصابئة الصيام لأنهم عدّوه من باب تحريم ما أحلّ الله.

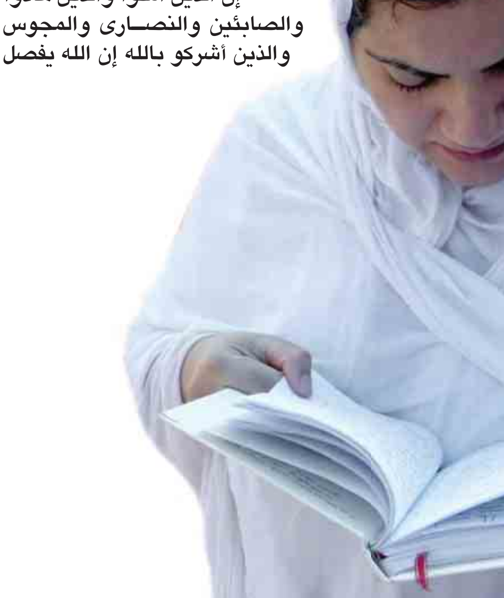
مع أن البحوث حول هذه الديانة بدأت منذ القرن السابع عشر، إلا أن هذه الديانة ما زالت من جملة الديانات المنسية والمجهولة. ويقول "فروزنده" حول هذا الموضوع إن أحد أسباب هذا الأمر هو أن الصابئة بسبب طقوسهم المترابطة كثيرا بالماء والتي تفرض عليهم أن يسكنوا قرب الأنهار والشطوط في المناطق الحارة ككارون في إيران والفرات في العراق، ليتمكنوا في أكثر أيام السنة أن يدخلوا الماء، فإنهم تبعدوا دون أن يريدوا الابتعاد عن الناس. أما السبب الثاني فهو أن الديانة الصابئية ليست تبشيرية ولا يوجد فيها التبشير، وبمعنى آخر لا يوجد منع في هذه الديانة في الخروج منها، غير أن الدخول إليها ممنوع. وفي إيران وسائر الأماكن التي يوجد فيها الصابئة قلما نرى رغبة في البحث أو التعرف إلى هذه الديانة فبقيت منسية وبعيدة.



التعميد أبرز معالم ديانة الصابئة المندائيين ولا يكون إلا في الماء الجاري



المنداني مأخوذة من كلمة مندايي باللغة الآرامية، وتعني العارف



"للصابئة كتب ومخطوطات دينية، طقسية، تاريخية، ومعرفية جميعها مكتوبة باللغة المندائية الآرامية. وهي كتب غنية بالعمق اللاهوتي الديني والعقائدي والروحاني"



هويات قلقة

«إنشاء البيت المندائي جاء كخطوة مهمة لإنصاف أبناء هذه الطائفة التي تعرضت حالها حال المكونات العراقية الأخرى للظلم».

طاهر الحمود
وكيل وزارة الثقافة العراقية

«افتتاح بيت المعرفة المندائية ببغداد دليل على اهتمام وزارة الثقافة بالصابئة واعتبارهم جزءا أساسيا في حضارة وادي الرافدين».

توما زكي زهرون
مدير أوقاف الصابئة المندائيين

# ● ديانة منسية ومجهولة وطائفتها من أكثر الطوائف قلقا في الشرق الأوسط

**زيد بن رفاعة**

❑ حول ماء العراق، دجلة والفرات، أقامت جماعة قديمة قدم سومر وبابل، طقوسها تتعلق بالماء، لكنها لا تعبد الماء، مثلما حاول بعض المؤرخين اعتبار الصابئة المندائيين من عُباد الماء، وإن كانوا لم يفصحوا بذلك، وقد وصفهم ابن النديم في "الفهرست" بالمغتسلة، ويكفي أنه اختصر علاقتهم بالدين في حدود الماء، يوم سمع بهم كطائفة يقيمون على شواطئ الأنهار العراقية وفي بطائح جنوب العراق.

هناك مَن يقول إنهم جاؤوا إلى العراق من فلسطين، وأنهم أتباع يوحنا (يحيى) المعمدان، وبذلك لهم صِلة بالسيد المسيح، وبالمسيحيين على العموم، كأولاد خالة، مثلما يُعرف هذا داخل العراق عنهم. صحيح أنهم يتعمدون، بل إن ديانتهم تعتمد من الأساس على التعميد إلا أن تعميدهم مختلف عن العماد المسيحي، فهم عند العماد الأكبر يدخلون في النهر، وكذلك الحال في الزواج.

يختلف الصابئة المندائيون مع اليهود والمسلمين بخصوص الختان، فهم لا يختتنون مثلهم، ووفق رأيهم أن الجسم من خلقة الله لا يجوز الزيادة والنقصان به، وبهذا الرأي يتعاملون مع الشعر، اللحية والرأس والشارب، لكن الشعر ليس من الفروض بقدر ما أن الختان منه، فمن يختتن يخرج من الدين المندائي.

عرفوا بالمندائية أو المندائيين نسبة إلى مفردة المندا، ومعناها ذرة العقل، وبهذا عرف مكان عبادتهم بالمندي، وقديما كانوا يقيمون المنادي، إنما حياتهم متصلة بالتقشف والبساطة، فالمندي دائما يكون مؤقتا من البردي والقصب، وما حوته بيئة البطائح، لكن بعد انتقالهم إلى المدن فرضت الضرورة عليهم أن يقيموا منادي ثابتة من الحجر والطابوق، وظلت عندهم مسألة تعويض ماء النهر، فهم لا يقرون التعميد بالماء غير الجاري، والضرورة أيضا حكمت عليهم أن يتعمدوا بالمياه عبر الأنابيب وفي الأحواض.

### الخير إلى جوار الشرّ

يؤمن الصابئة المندائيون بالله الواحد الأزلي، وهو المطلق في الأعالي، وقد أمر مَن قام بهمة خلق تفاصيل الكون، وجبرائيل عندهم يدعى "هيبل زيوا" أي ملاك النور، وهو الذي نزل إلى الأرض وحاول القضاء على الشرّ، وهي فكرة تتطابق مع الفكرة السومرية والبابلية في الخليقة، فانتصر على "الروهة" وهو كائن الظلام في العالم السفلي، لكن لا يفهم من هذا أن الخير والنور صارا مطلقين، إنما شيء من جسد الروهة اختلط في مادة خلق العالم، فكان الخير إلى جوار الشرّ، وعمل الإنسان على التخلص من هذا الازدواج. ومثلما يقول المسلمون "بسم الله الرحمن الرحيم" يقول الصابئة المندائيون بلغتهم الآرامية الشرقية "بشمادهي ربي"، أي بسم الحي ربي، أو "بشمادهي قدماني" أي بسم القديم، فعندهم الله هو القديم، وهو سبب المخلوقات كافة.

◄ **على الرغم من قلتهم وضعفهم استطاع الصائبة المندائيون أن يبقوا على مدى قرون طويلة**

لديهم صلاة وصيام خاصان بهما، وأعياد عديدة، لكن ما يبهر ويُدهش الفكر أن هؤلاء على الرغم من قلتهم وضعفهم استطاعوا أن يبقون على مدى هذه القرون الطويلة، ويتجاوزون كل مؤذيات المحيط، فكم من فتوى قتل جماعية قد نجوا منها، وليس لدينا من سبب في هذه القوة والصلادة سوى أنهم تمترسوا بالصبر، أي مهما حاول المحيطون التحرش بهم، أو جرهم إلى معارك غير متكافئة، تجدهم يلوذون بالصبر ولا يردون بكلمة، وهذا ليس غريبا على هذه الجماعة، فإن من ملائكتهم ملاكا يدعى "ششلام ربه" أي ملاك السلام، وهو رافع الراية (الدرفش)، التي ينشرونها في مناسباتهم الدينية.

### المندائيون في العراق

تاريخ الصابئة المندائيين في العراق طويل جدا، وجعلوا المجتمع الذي يحيط بهم يحتاج إليهم، وذلك أنهم هيمنوا بقدراتهم الفكرية والمهنية على بعض المهن الضرورية للسكان، ففي البطائح أو الأهوار كانوا يصنعون القوارب، ودونها لا يتحرك سكان المنطقة، لأنها عبارة عن أنهار وجداول ومسطحات مائية، وفي المدن احتكروا صياغة الفضة، أو ما يُعرف بالمينا.

عاشوا في العصر العباسي، وظهرت أخبارهم في كتب التاريخ، وبرز منهم كُتاب وأدباء وعلماء وأطباء، تفردوا في الكتابة والفلك والنجوم والطب، حتى تبوّأ بعضهم إدارة المستشفيات، وقد صاحب أحدهم الخليفة العباسي المعتضد بالله، وكان يعتني ببدن الخليفة ويشاوره أيضا في أمور مملكته. ولما استخلف القاهر بدين الله العباسي، المتوفى السنة 329 هجرية، طلب من محتسب دولته الأصطخري أن ينظر في أمرهم، فأفتاه بقتلهم أو إشهار الإسلام، وكانت محنة حقيقية لهم، لكنهم نجوا منها برشوة الخليفة.

صار الصابئة المندائيون جزءا لا يتجزأ من المجتمع العراقي، وإن لم تكن الدولة العثمانية تعترف بهم، كطائفة، لكن وجودهم في الأطراف أبعدهم عن المواجهة، ومن دون إغفال اعتزاز شيوخ القبائل بهم، لأنهم أولا كانوا مسالمين وثانيا لأنهم اختصوا بصناعة أدوات الإنتاج، كأدوات الفلاحة، وهذا مهم جدا في دوام الدخل لشيوخ القبائل.

لكن في عهد الدولة الوطنية العراقية (بداية من العام 1912)، ومن قبلها السيطرة البريطانية، ظهروا كوجود اجتماعي معترف به، فظهرت قوانين تحفظ لهم وجودهم، وكيانهم الديني، ولهم الحق في التحكم بأمور فقههم، من زواج وعلاقات أخرى، وحشروا مع المجتمع ودخل شبابهم إلى الأحزاب الوطنية، فصار منهم قادة في الحزب الشيوعي، ودخل بعضهم في حزب البعث وبقية الأحزاب، لكن أكثرهم كانوا ينتمون إلى اليسار.

ما هو مؤكد أنهم طائفة من أقدم الطوائف العراقية، ذلك إذا حسبنا أنهم مازالوا في طقوسهم يتحدثون اللغة الآرامية، لغة العراق القديمة، وأن كتابهم المقدس "الكنزا ربا" قد ظل لقرون مكتوبا بهذه اللغة، حتى ترجم إلى العربية ونشر في بداية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

كان عددهم في العراق، حتى نهاية الخمسينات، نحو سبعة آلاف نسمة، ثم صعد العد إلى خمسة عشر ألفا، وفي نهاية الثمانينات، من القرن الماضي، صار عددهم خمسين ألفا داخل العراق، ولهم امتداد في إيران، منطقة الأحواز، فقد كان عددهم يبلغ هناك نحو خمسة وعشرين ألف نسمة.

على أية حال يمكن القول إن عددهم في العالم يفوق المئة ألف. أما تسربهم من داخل العراق فله صلة بالحرب العراقية الإيرانية والحصار الاقتصادي على العراق (1990-2003)، إضافة إلى سنوات العنف التي عقبت سقوط النظام العراقي السابق، بما أنه ليس هناك إحصاء دقيق، لكن العدد الأكبر منهم واجه الاضطهاد من قِبل الميليشيات الإسلامية المسلحة، السنية والشيعة، بعد احتلال العراق، ويشار إلى أن عددهم قد تضاءل كثيرا، وربما لم يبق منهم أكثر من عشرة آلاف نسمة.

لهم مجلس روحاني ورئاسة طائفة، تقوم بدور متابعة أحوالهم الدينية، يترأسها شيخ بدرجة دينية كبرى "ريش أمة" أي رئيس الأمة، وذلك إذا علمنا أن درجاتهم الدينية كالآتي: الحلالي، والتلميذة، والكنزبرا (مفسر الكتاب المقدس) وريش أمة، والرباني، لكن الدرجة الأخير لم يبلغها إلا يوحنا المعمدان، أي النبي يحيى، واسمه في المندائية: يهيها يهانا، ومعناها محي الأمة، واسم يحيى، على ما يبدو، منحوت من تلك التسمية.

مازالت دولة إيران الإسلامية غير معترفة بهم رسميا، وذلك أن الدستور الإيراني يعترف باليهودية والمسيحية والزرادشتية فقط، بينما هم ذكروا في الآيات التي اعترف بها بتلك الديانات، وإذا الزرادشتية أو المجوسية وردت في آية واحدة، فالصابئة ورد اسمهم في ثلاث آيات، لكن الدستور الإيراني يتبع رسالة الخميني الفقهية "تحرير الوسيلة". بينما مرشد الثورة علي خامنئي يعترف بأنهم موحدون، لكن هذا الاعتراف لم يغير في الموقف الرسمي منهم. لنا القول إنهم أكثر الطوائف قلقا في الشرق الأوسط.

## بيت المعرفة المندائية

**ضمن مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية لعام 2013 تم، مؤخرا، وضع حجر الأساس لـ«بيت المعرفة المندائية»، وهو أول صرح ثقافي في بلاد الرافدين مخصص لأتباع هذه الديانة القديمة.**

**ويهدف هذا المشروع إلى إبراز ثقافة الصابئة المندائيين وإرثهم الحضاري ومساهمتهم في الحركة الثقافية والأكاديمية في العراق وتقديم نموذج للتسامح الديني والتعايش السلمي المكفول دستوريا بحق المعرفة والتراث.**

## عبد الرزاق عبد الواحد: الكنزا ربا كنزي العظيم

❑ **بغداد** - يعتبر كتاب الكنز العظيم كنزا ربا أقدس الكتب والمخطوطات عند الصابئة ومصدر التشريع والوصايا والتعاليم، ويؤمن الصابئة المندائيون بأن هذا الكتاب هو كلام الله ووصاياه الموحى بها للنبي آدم وأنبياء الصابئة الناصورائيين المندائيين. ويؤمن الصابئة من خلال كتابهم هذا وكتبهم المقدسة الأخرى بأن النبي آدم عليه السلام يمثل رأس سلالة البشر، ويعتقدون أن الكنز العظيم يجمع صحف آدم وشيت وسام.

يتألف الكتاب من 18 كتابا في 62 سورة تقع في حوالي 600 صفحة وهو بقسمين: القسم الأول يتضمن سفر التكوين وتعاليم "الحي العظيم" والصراع الدائر بين الخير والشر والنور والظلام وكذلك هبوط "النفس في جسد آدم ويتضمن كذلك تسبيحا للخالق وأحكاما فقهية ودينية. ويتناول القسم الثاني قضايا "النفس وما يلحقها من عقاب وثواب.

وأول نسخة عربية للكتاب تمت ترجمتها في التسعينات من القرن العشرين من قبل الشاعر العراقي المندائي عبد الرزاق عبد الواحد. وقد قال الشاعر العراقي عن ترجمته لكتاب المندائيين المقدّس: "يوم عرضت عليّ اللجنة العليا لترجمة كتابنا المقدس "كنزا ربّا"، أن أتولّى إعداد الصياغة الأدبية لترجمته، اعتذرت عن النهوض بهذه المسؤولية الكبيرة. اعتذرت بكثرة مشاغلي، وبصعوبة وخطورة ما أنا مقدم عليه. وحين عاودت اللجنة عرض الأمر عليّ بعد زمن - وكنت قد فكرت خلال ذلك بالأمر سائلا نفسي: إن كنت أنت تتهيّب ذلك يا عبد الرزاق عبد الواحد فمن سيقدم عليها؟ - قبلت المهمة، على صعوبتها، وعلى خطورتها، وعلى عظم المسؤولية فيها. قبلتها لسبب قد يبدو غريبا: لقد خشيت من المستسهلين والمتساهلين. خشيت أن يخرج هذا الكنز المقدس إلى العالم بعد آلاف السنين من التساؤل، والترقب، والشك، وحتى الاتهام.. خشيت أن يخرج بشكل يبّرر كل تلك التساؤلات، لذا كان عليّ أن أقبل التكليف، وقبلته!

مرارا قرأت الكتاب، وأنا أحاول أن أجد المنفذ الأبداعي للدخول إليه. أما المنفذ الروحي فأنا أملكه بحكم كوني إنسانا مندائيا عاش مناخ الطقوس المندائية، وترعرع فيه منذ يوم ولادته.

أعترف الآن أن هذا المنفذ النفسي، الروحي، كان دليلي ومرشدي ومفجّر الإبداع في كل جملة من جمل الكتاب أعدتُ صياغته، متحسسا بأنامل روحي طريق الدخول إليها، ومعابر التواصل بين مفرداتها. بين كل تلك الغيوم البيض المعطّرة وغلائل الغموض اللذيذة والمثيرة، والتي كانت تظلّل الكلمات، مخبّئة فيها - بقدسية باهرة - كنوزها العزيزة.

لقد كان علي أن أركض وراء مساقط الكلمات لا الكلمات نفسها.. وأن أبحث في ظلال الحروف لا في أضويتها التي كانت تعشي البصر في كثير من الأحيان.

أعترف مرة أخرى أن مندائيتي هي التي أخذت بيدي وسط مهرجان النور هذا. لقد أحسست أن منداد هيي كان معي، ولم أكذّب هذا الإحساس لحظة واحدة.

في إحدى الليالي كنت منحنيا على الورق في مكتبتي ست ساعات متواصلة دون أن انتبه إلى أنني لم أقف، ولم أتحرك من مكاني. وحين وقفت فجأة ترنحت وأوشكت على السقوط ، فاتكأت على سياج مكتبتي، ونظرت من نافذتها العريضة المطلة على مجرى دجلة أمامي، وهتفت بكل كينونتي دون صوت: يا منداد هيي.. أمهلني فقط حتى أنجز كتابك هذا، ولحظة أنتهي منه تجدني جاهزا للذهاب معك وسالت الدموع غزيرة على وجهي!.

هذه المعاناة الهائلة هي شرفي.. وكنزي العظيم. سنة وأربعة أشهر وبمعدل خمس ساعات في اليوم.. دون توقف، ودون انقطاع.. لم أشرك بالكتاب شيئا: لا كتبت شعرا ولا دراسة ولا قرأت شيئا خوف أن يختلط بمناخ الكتاب ما يثلّم رؤيتي فيه.

أتعلمون أيها السادة؟

سألت نفسي مرة: تفقس بيضتان.. يخرج من إحداهما فرخ بط ومن الأخرى فرخ دجاج.. مَنْ ألهم الأول أنه يستطيع العوم فيركض إلى الماء ويلقي نفسه فيه؟ وخاف الثاني من الماء فهرب منه لأنه لا يحسن العوم فيه؟

كان ذلك دليلي في كتابتي!

انه ميراثي المندائي عبر آلاف السنين.. به كنت ألتقط لآلئ الكنزا ربا، غائصا في مياهها. لم تكن تحملني على أمواجها مقدرتي الأدبية وحدها، بل هذا الحسّ المندائي بالمعنى.. حسّ فرخ البط وهو يركض إلى الماء.. وحسّ فرخ الدجاج وهو يهرب من الماء! لست أدعي أن ما فعلته كان معجزة. وكل ما فعلته أنني وضعته عربيا بين يدي أهله ومحبيه.. وبوضعه كذلك، وضعت نفسي موضع الرضا عن نفسي، أنني أنجزت في حياتي شيئا يعتز به أولادي، وتعتز به طائفتي حتى آخر إنسان فيها".